الفقيه الكبير الشيخ محمد حسن النجفي

صاحب الكتاب الموسوعي (جواهر الكلام)

«الفقه الجواهري» مصطلحٌ أطلقه الإمام الخمينيّ قدس سره، مؤكّداً على مواصلة حركة الإجتهاد بنفس المنهجيّة العلميّة التي اعتمدها الشيخ محمد حسن النجفي، «صاحب الجواهر»، الذي أصبحت كلمة «الجواهري» عَلَماً عليه، واسماً لعائلة علميّة كريمة.

ما يلي جولة في التعريف بهذا العالِم الفقيه، رضوان الله تعالى عليه.

هو شيخ الفقهاء، العلّامة الشيخ محمد حسن، بن الشيخ باقر، بن الشيخ عبد الرحيم، بن الآغا محمّد الصغير، بن الآغا عبد الرحيم الشريف الكبير. صاحب الموسوعة الفقهيّة الإسلامية الكاملة (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام). من أعلام الطائفة الاماميّة وفقهاء الاثني عشريّة. نبغ في النجف الأشرف، وانتهت إليه مرجعيّة الشيعة ورئاسة الطائفة الإماميّة في الأقطار كافّة.

ولادته

وُلد صاحب الجواهر حدود سنة ١١٩٢ للهجرة، في دار والده المجاورة للصحن الحيدريّ الشريف في النجف الأشرف، ومات فيها. وكان في هذا البيت سردابٌ فيه محراب يتعبّد فيه الشيخ آناء الليل وأطراف النهار، بعيداً عن الدنيا منقطعاً الى الله سبحانه وتعالى. وفي فترة لاحقة، هُدمت هذه الدار وأُلحقت مساحتها بدورة الصحن الحيدري الشريف.

يقول العلّامة الحجّة الشيخ المظفر في مقدمة كتاب (الجواهر): «وإذا كان قصير النسب فهو المطوِّلُ لمجد أُسرته، والمجدّد لها الذكر الذائع، وبُعدَ الصيت، وطيب الأحدوثة، والفخر الخالد، والمؤسّس لمجدها، والباني لصرح عزّها.

أمّا من جهة الأمّهات، فهو ينتهي من قِبل أمّ أبيه الى الشيخ أبي الحسن الفتوني العامليّ، ومن قبل أمّه الى السادة العذاريين المعروفين بآل حجاب، فهي علويّة منهم. ولذا كان يقضي شيخنا الجواهريّ شطراً من أوقاته في أيام نشأته الاولى في العذارات – وهي من قرى الحلّة الفيحاء – عند أخواله، وكان هذا سبب تأليفه كتابه (الجواهر)، ليكون له مذكّرة فقهيّة يرجع إليها حيث لا تتهيّأ له هناك الكتب للمراجعة عند الحاجة».

الشيخ محمد حسن النجفي «صاحب الجواهر»

الحركة العلمية في عصره

ابتدأت الحركة العلميّة في الفقه والاصول في كربلاء، على يد مؤسّسها العظيم، الآغا محمّد باقر الوحيد البهبهاني (ت ١٢٠٥ للهجرة).

ونازعت النجفُ كربلاء وشاطرتها الحركة العلميّة، بفضل تلميذَي البهبهانيّ، السيّد مهدي بحر العلوم (ت ١٢١٢ للهجرة) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨ للهجرة)، إلّا أنّ كربلاء بقيت محافظة على مركزها حتى وفاة المُرَبّي العظيم شريف العلماء، الشيخ محمّد شريف المازندرانيّ (ت ١٢٤٥ للهجرة)، وبفَقدِه، فقدت كربلاء تلك المركزيّة، واتّجهت الأنظار صوب النجف لوجود الشيخ صاحب الجواهر، الذي

اجتذب اليه طلّاب العلم بفضل براعته البيانيّة، وحُسْن تدريسه، وغزارة علمه وثاقب فكره الجوّال، وبحثه الدؤوب وانكبابه على التدريس والتأليف، وكان مجلس بحثه يضمّ أكثر من ستّين مجتهداً من المُعترَف لهم بالفضيلة. وقد تخرّج على يديه من أعلام الدِّين ما يفوت الحصر، واستمرّ هذا التفوّق في الأرقام العلميّة للمؤلّفات والعلماء حتى القرن الرابع عشر.

أخلاقه وسيرته

كان صاحب الجواهر على جانب عظيم من التواضع وكسر النفس، فكان مع تلاميذه كأحدهم، ومع الناس كالأب الرؤوف. وهو الذي سَنَّ الخروج الى مسجد الكوفة والسهلة ليلة الاربعاء، ولم يكن ذلك قبله معروفاً، فكان يخرج ومعه تلامذته وحاشيته على الخيول المسرجة، وتُنقل معهم مستلزماتهم وما يحتاجونه. وكان سمِحاً في مجاملاته عكس الشيخ مرتضى الانصاريّ (ت ١٢٨١ للهجرة) الذي كان غاية في التزهّد، ويقال إنّ الشيخ مرتضى سُئل عن ذلك فقال: «الشيخ محمّد حسن أراد أن يُظهر عِزّ الشريعة، وأنا أردتُ إظهار زهدَها».

وسُئل ـ الشيخ صاحب الجواهر ـ في مرض موته أنّه إنْ حدث أمرٌ فمن المرجع في التقليد؟ فأمر بجمع أهل الحلّ والعقد من العلماء، فاجتمعوا عنده، وكلٌّ يرى أنّه هو المشار إليه، وكان بعضهم يرى أنّه سيرشِّح أحد أولاده، لأنّه كان فيهم من يليق لذلك، ولكنّه لمّا غَصّ المجلس بالعلماء، سأل عن الشيخ مرتضى الانصاريّ فلم يكن حاضراً معهم، فبعث خلفه، فلمّا جاء قال له: أَفي مثل هذا الوقت تتركني؟! فأجابه: كنت أدعو لك في مسجد السهلة بالشفاء، فقال له: ما كان يعود إليّ من أمر الشريعة المقدّسة فهو وديعة الله عندك، ثمّ أشار إلى الحضور ليُقلِّدوه بعد أن أمره بتقليل الاحتياط.

أولاده

أنجب الشيخ صاحب الجواهر رحمه الله ثمانية أولاد ذكور، أعقب كلُّهم إلّا الشيخ حسين الذي توفي في شبابه قبل أن يتزوّج. وقد توارث أولاده كابراً عن كابر العلم والفضيلة وزعامة النجف، فأصبحت أُسرته من الأُسر العلميّة التي لها مكانها المرموق، وزعامتها المعترف لها.

أساتذته وتلامذته

أخذ عن الشيخ جعفر كاشف الغطاء صاحب (كشف الغطاء) وولده الشيخ موسى، وعن السيد محمد جواد الحسيني العاملي صاحب (مفتاح الكرامة)، وعن السيد أبي الحسن الحسينيّ العامليّ، وعن الشيخ قاسم محي الدين، وغير هؤلاء من تلامذة الوحيد البهبهانيّ وبحر العلوم. وقد نشطت الحركة العلميّة في النجف الأشرف في عهد شيخنا صاحب الجواهر، وأقبل طلّاب العلم على الهجرة اليها، وكان درسُ الشيخ بالخصوص ملتقى النوابغ والمجتهدين من الطلاب، فتخرّجت على يديه جماعةٌ كبيرة من أعلام الفقه، انتشر أكثرهم في البلاد.

غلاف مجلّد من «جواهر الكلام»

من أبرز مؤلفاته

من أبرز مؤلفاته رضوان الله عليه:

١- (جواهر الكلام): الموسوعة الفقهيّة التي فاقت جميع ما سبقها من الموسوعات سعةً وجمعاً، وإحاطةً بأقوال العلماء وأدلّتهم، مضافاً إلى أنّه كتابٌ كامل في أبواب الفقه كلّها، جامعٌ لجميع كُتُبه. وثمّة ميزة ثالثة تفرّد بها هي أنّه على نسقٍ وأسلوب واحد، وبالسعة نفسها التي ابتدأ بها انتهى إليها. وميزة رابعة، فالمجتهد يستطيع أن يطمئنّ إلى استنباط الحكم الشرعيّ بالرجوع إليه فقط، وليس له أن يطمئنّ إلى ذلك عند الرجوع الى ما سواه في أكثر المسائل الفقهية، حتى في هذه العصور الأخيرة، وخاصّة أنّه احتوى على كثير من التفرّعات الفقهيّة النادرة، بما قد لا تجده في غيره من الموسوعات الأخرى، فهو جامع لأمّهات المسائل وفروعها.

وحدَّث الشيخ آقا بزرك الطهراني صاحب (الذريعة) عن بعض العلماء أنّه قال: «لو أراد مؤرّخ زمانه أن يُثبت الحوادث العجيبة في أيامه، ما يجد حادثة بأعجب من تصنيف هذا الكتاب في عصره».

وجاء في (تكملة أمل الآمل)، أنّ الشيخ قال في جملة كلام له مع تلميذه فقيه عصره الشيخ محمد حسن آل ياسين عن كتاب (الجواهر) في قصة طويلة: «... والله يا ولدي أنا ما كتبتُه على أن يكون كتاباً يرجع اليه الناس، وإنّما كتبته لنفسي، حيث كنت أخرج الى (العذارات)، وهناك كنت أُسأل عن المسائل وليس

عندي كتبٌ أحملها، لأنّي فقير، فعزمت على أن يكون لي مرجعاً عند الحاجة. ولو أردتُ أن أكتب كتاباً مصنّفاً في الفقه، لكنت أُحبّ أن يكون على نحو (رياض المسائل) للسيّد علي رحمه الله».

وعلّق على هذا الخبر السيّد الصدر صاحب (التكملة) رحمه الله بقوله: «هذا يدلّ على أنّ صاحب الجواهر لمّا كتبه لم يكن في خاطره شيء من لوازم حبّ الجاه والسمعة والتعريف، وإنّما كتبه لنفسه وقضاء حاجته لا غير».

وقد هنّأه بإتمام كتابه (جواهر الكلام) كثيرٌ من شعراء عصره، كالشيخ موسى شريف، والشيخ عبد الحسين بن الشيخ قاسم محي الدين، والشيخ ابراهيم قفطان، وصهره على ابنته السيد صالح القزويني، وتلميذه العلّامة السيد حسين بحر العلوم رحمه الله بقوله من قصيدته:

لـلّه علمـُك كـم وكـم وضُحـــت بـه

سننُ الهدى حتى اهتدى حيرانُها

كـم من يدٍ مشكـورةٍ لك في الورى

صـافٍ نـداها سـابـغٌ إحـسـانُـها

لـو لـم تكـن إلا جواهرُك الـتي

أحـيا شـريعـةَ أحـمـدٍ بـرهـانُـها

لكـفَـتْك بين ذوي العلوم فـضيـلـةً

شـهدت بأنـك فـيهـمُ سـلطـانُـها.

يقول رحمه الله في خاتمة هذا الكتاب: «وحيث قد منّ الله تعالى شأنه علينا بقبول توسُّلنا بمحمّدٍ ﷺ وأهل بيته، خصوصاً أسد الله الغالب، باب مدينة العلم منهم، الذي كان استمدادنا وإمدادنا من أنواره بأن وفّقنا لأن أتينا بما قصدناه ووفينا بما وعدناه فلنحمد الله تعالى شأنه ونشكره على نِعمه الوافرة وأياديه المتظافرة وآلائه المتكاثرة "..." تمّ كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام) في ليلة الثلاثاء ثلاثة وعشرين في شهر رمضان المبارك، ليلة القدر التي كان من تقدير الله تعالى فيها أن يتفضّل علينا بإتمام الكتاب المزبور "..." من سنة الألف والمأتين والأربع والخمسين من الهجرة النبوية على مهاجرها ألفُ ألفِ صلاة..».

٢- (نجاة العباد في يوم المعاد): رسالة عمليّة فتوائيّة لعمل مقلّديه، وقد اعتمد عليها الشيخ الأنصاريّ، فوقّعها لعمل مقلّديه، وعلّق على موارد اختلاف نظره في الحاشية، فحذا حذوَه العلماء بعده، فكثُرت الحواشي على (نجاة العباد).

٣- (هداية الناسكين من الحجّاج والمعتمرين): ترجمه ملّا عليّ بن ميرزا خليل الطهرانيّ إلى الفارسية، وشرحه الملّا محمّد حسين القمشهي.

وقد عثر الدكتور العلامة الشيخ عبد الهادي الفضلي دام ظله، على نسخة من (هداية الناسكين) في بعض مكتبات المملكة العربيّة السعوديّة، تـمّتْ مطابقتها وتحقيقها من قِبَلِه على كتاب الجواهر، وتمّ طبعها.

مدخل مقبرة «صاحب الجواهر»

وفاته و مرقده

توفّي شيخنا صاحب الجواهر في غرّة شعبان يوم الأربعاء عند زوال الشمس سنة ١٢٦٦ للهجرة في النجف الأشرف، ودُفن في مقبرته المعروفة والمجاورة لمسجده المشهور، وعلى مرقده قبّة من الكاشيّ الأزرق، وهي اليوم مزارٌ بارز يقصدها الزائرون ويتبرّكون بها، وقد أرّخ عام وفاته حفيدُه العلّامة الشيخ عبد الحسين بن الشيخ عبد علي، بِبيتَين كُتبا في مرقده:

ذا مرقـد الحسن الزاكـي الذي انـدرجت

أسرارُ أحـمـد فيه بـل ســـرائـرهُ

أودَى وَمُـذ أيـتـَـمَ الإسْـلام أرّخـته

(بَـيْـنَ الأنـام يَـتِـيـمات جَواهِـرهُ)

١٢٦٦ للهجرة